

من الحياة التي كان بها حالاً صحيحاً ، إلا بقايا لا تبقى
هنا ، كما أصبح يوماً في ميدان الحرب ، ومعه بقايا أسلحة
لا تبقى هنا شيئاً

جاءت الغزوات الصليبية الجديدة متلاحقة سرية نفاذة
نشر طلائعها الأولى في كل مكان ، مزودة بالفهم والإدراك
والعزيمة ، بطبيعة هذا الميدان الجديد ، فلقى قوماً قد سلخوا
الفهم والإدراك والعزيمة لطبيعة هذا الميدان . ولكنهم
كانوا بفطرتهم يملكون أن هذه الطلائع عدو لهم ، فقاومهم
من قواومهم بما تستثيره الفطرة من بغض العدو والشك فيه ،
وإن جاء في ثوب المالم والنامج . ونهاوى آخرون ،
فوقعوا في حوزة العدو ، إذ غرهم مسالمة وخدعهم نصحه ،
وظلت هذه الحروب دائرة بيننا وبينهم أكثر من مئة
وخمسين عاماً ، في سكون وصمت ، ولجاجة وحرص ، وقوة
وحذر ، ومعرفة وبصر ، حتى بلغ العدو منا مبلغاً لم يكن
في أول الأمر يظن أنه يبلغه . فقد نهاوى البناء كله فجأة .
وأصبحت الحياة الإسلامية أطلالاً يتنادى الفناء فتجيب
بلا مقاومة ولا عناد

ذهب كل شيء يكون للحياة البشرية قواماً وعماداً :
ذهب العلم والأدب والأخلاق واللغة والتاريخ ، وجاءه
الغزاة بما يحمل مكانه من علم وأدب وأخلاق ولغة وتاريخ .
ذهب الذي كان ينبع نبيه من كتاب الله ، ومن حياة الأمة
المسلمة ، وسنة رسوله ، وجاء الذي ينبع نبيه من الحياة الوثنية
القديمية ، ومن المسيحية المحدثنة . ذهب الذي كان يتحدر
إلينا كما تتحدر الوراثة من أصلاب الآباء إلى أصلاب
الأبناء ، وجاء الذي يتحدر إلينا كما يتحدر السيل الجارف
لا يبق ولا يذر . ذهب شيء وجاء شيء ، ففتننا نظرننا
وقكرنا ، وتغير إدراكنا ومعرفتنا ، وتغير شعورنا
وإحساسنا ، وتغير لساننا وبياننا . فمدنا نظرننا في الكتاب
الذي هو كتابنا ، وأخبار النبي التي هو نبينا ، وآثار
الماضين الذين هم آباؤنا . فأنكرنا ما وجدنا في ذلك كله ،

أبصر طريقك

للأستاذ محمود محمد شاكر

منذ ظهر دين الله في الأرض ، وتدافعت أمواجه شياً لا
وجنوباً وشرقاً وغرباً ، وضرب تياره أسوار العالم المحيط
به ، وطهر بلاداً كثيرة وغسلها مما فيها من الشرك والكفر
والإهلال لعير الله سبحانه ، أخذت تتجمع في أطرافه
عداوة لا تنام ، وبقيت هذه العداوة تنازل جنود الله عاماً
بعد عام في تنور الإسلام . ثم احتشدت هذه العداوات
المتفرقة في التنور حشداً واحداً ، بدأت به الغزوات المتلاحقة
التي عرفت في التاريخ باسم الحرب الصليبية . وظلت هذه
الحروب مشبوبة قروماً طويلة ، وأداتها السلاح والجيوش
والمواقع

ثم انتهت حرب السلاح والجيوش ، إذ وضع العالم
الإسلامي سلاحه ، بل أصبح من ذلك ، أن العالم الإسلامي
يومئذ لم يكن معه سلاح يضمه أو يرفعه . وإذا كان فيه
سلاح ، فهو سلاح لا ينبت عنه في لقاء هذه الأسلحة
الجديدة ، التي جاءت مع الغزاة . ومن يومئذ انتقلت الحرب
الصليبية من ميادين القتال ، إلى ميدان آخر : هو الحياة
نفسياً !

كانت خطة الحرب الصليبية الجديدة ، هو ذلك الحياة
الإسلامية كلها : تدك بناء هذه الحياة ، وتدك علمها ،
وتدك آدابها ، وتدك أخلاقها ، وتدك تاريخها ، وتدك
لغتها ، وتدك ماضيها . وفي خلال ذلك ينشأ بناء جديد
لهذه الحياة ، بعلم غير العلم الأول ، وأدب غير الأدب ،
وأخلاق غير الأخلاق ، وتاريخ غير التاريخ ، ولغة غير
اللغة ، وماض غير الماضي . وبأني يوم فإذا الهزيمة واقمة
كما وقعت في الميادين . ويصبح العالم الإسلامي وليس معه

أعمته الحياة التي بهرت هيئته وزلزلت عقائده ، فطلب كما يطلبون ، الدفاع عن الإسلام وإحيائه وتجديده ، على أسس لم يستمد أصلها من الحق الذي في دينه ، بل من أصل بعيد هو الحياة التي يحياها العالم الصليبي الذي غلب وقهر وظهر بحجده في هذه الأرض

إن هذا الرباء الذي يحتاج العقل الإسلامي والحياة الإسلامية ، قد نفذ إلى كل ركن في هذا العالم ، وسارت حياه سورة مستبعدة بكثير من رؤوس الدعاة . وانطلقت الألسنة بسرعة تريد أن تبني بناء عقليا جديدا لهذا الإسلام الذي تهدم بناؤه القديم ، فأتجدد لسانا إلا وهو يرسل طوفانا من الكلام بلا حذر ولا توقف ، وكل لسان يرى في الذي يرسله مادة صحيحة لبناء هذا العالم المهتم . وأصبح كل داعية إماما يقتدى به . والمتقدمون به لا يعلمون شيئا إلا أن هذا السبيل المرسل عليهم ، ليس إلا أصلا صحيحا من أصول هذا الإسلام الذي يدعوهم إليه . وكل داعية يظن نفسه ينبوعا يروي الطامئين ، يسألونه فيجيب ، فيطوفون به طواف الوثني بالصنم . مادة علمهم أن يستمدوا منه ما يجود عليهم به . ولا يجد أحدهم مقصدا أن يلتصق علمه إلا من فيض لسان هذا الإمام الداعي . والإمام مشغول بالتماس الماني التي يفيضها عليهم ، وهم لا يسألونه من أين يأتي بها . وكل داعية مشغول بإعداد المادة لمن يقيمه ، لا يحذر ولا يخاف ولا يتحري . وكل داعية مشغول عن الداعية الآخر ، لا ينتظر في أمره ولا يتعقبه ولا يقول له من أين جئت بهذا . بل لعله ينقل عن أقصد الفساد في قوله وفعله ، وأقبح التبجح الذي يبته في أتباعه ، لأنه يقول لنفسه إننا مشغولون جميعا بزم هذا البناء الذي تهدم ، بل ببناء شيء هو خير من الذي تهدم . وكل داعية منهم هو في الحقيقة منكر للحياة الأولى للإسلام ، ولكنه يريد أن يقاوم الفناء بأن يستخرج من نواحي هذه الحياة ما يقنع هو به ، ويقنع بعض الناس به : أن في ماضي

فطرحة منا من طرحه وراء ظهره ولم يبال به ، ونهب منا من نهب فوقف لا يدري ماذا يفعل ، وبقيت طائفة لا تطرح ولا تهيب ، فطلبت مخرجا من هذا الشيء الذي تنكره إنكاراً خفيفاً ، وهو في هذه الصورة التي جاء عليها من التراث الماضي . قرأت المخرج في تجديد التراث الماضي تجديدًا مقاربا ، بطابق الحياة الجديدة من وجوه ، وينكر الحياة القديمة من وجوه أخرى

ومن يومئذ انقسم العالم العربي والإسلامي إلى طائفتين: طائفة منكرة لا تمأ شيئا بالحياة الماضية كلها ، وطائفة لم يبلغ بها الإنكار أن لا تمأ ، فالتفت تجديد الحياة الماضية على أسس جديدة . وإذا هذه الأسس التي تريد أن تؤسس عليها ، هي في جوهرها مستمدة كلها من الحياة التي أنشأها النازي الصليبي بين ظهرائنا

هذه صورة مصغرة للحياة في العالم الإسلامي الحاضر . لا يدركها المرء حتى يعلم أن العالم الإسلامي مقبل على خطر أشنع من خطر النزول الصليبي الأول بالسلاح ، مقبل على هزيمة منكرة تكون عاقبتها تبديل الإسلام تبديلا كاملا حتى لا يبقى له من ظل الحق إلا ما بقي من ظل المسيحية الحقنة في العالم المسيحي الحاضر

ودعاة هذا التبديل ، علوا أو لم يعلوا ، قد تعاووا في كل مكان باسم الدفاع عن الإسلام ، وباسم إحياء الإسلام ، وباسم تجديد الإسلام . وهم يعملون جاهدين على أن ينشروا دينهم الجديد — كما ينبغي أن يسمى — بجميع الوسائل التي يظنون أنها تفضي بهم إلى الدفاع عن الإسلام أو إحيائه أو تجديده . وهم على مر الزمن ، سوف يتركون آثارا عميقة في حياة العالم الإسلامي الحاضر ، وسيبتمهم تاهبون ينتفون آثارهم ، مبعدين عن النهج الأول الذي بنى عليه هذا الإسلام الذي يدافعون عنه أو يحيونه أو يجددونه ! بل إن هؤلاء أنفسهم قد كانوا خلفاء لجيل سبق من قبلهم ،